

دور العامل السياسي في انتشار المذاهب والعقائد في التاريخ الإسلامي - المذهب الأشعري نموذجا -

The Role of the Political Factor in the Propagation of Doctrines in the Islamic History-Al Ashaàri Sample.

الأستاذ : مغزاوي مصطفى .
أستاذ التاريخ الإسلامي - أستاذ مساعد « أ »
قسم العلوم الإنسانية و الاجتماعية - كلية الآداب و اللغات -
جامعة حسينية بن بوعلي بالشلف . الهاتف : 0775248406
البريد الإلكتروني : marzaoui@gmail.com

ملخص

سنحاول من خلال هذه الدراسة تتبع الأثر السياسي في انتشار المذاهب والعقائد في التاريخ الإسلامي من خلال انتشار المذهب الأشعري و سيادته في العالم الإسلامي كمذهب رسمي للعديد من الدول الإسلامية ، و تبين حقيقة دور العامل السياسي الذي غالبا ما يكون عاملا أساسيا بل وحاسما أحيانا أخرى لا سيما إذا تحالف الدور السياسي مع الدور العملي ، فتدخل السياسيين في الصراعات المذهبية - عبر التاريخ الإسلامي - لم يكن بشكل عفوي ، بل كان مقصودا لتمذهب وربما تعصبهم ، أو لمصالح سياسية ومطامع سلطوية ، وكانوا بتدخلاتهم يحسمون جولة الصراع للطرف الموالي لهم مستغلين سلطانهم ، بما يحيطون به المذهب من التأييد السياسي والرعاية العلمية ، فالملك والدين توأمان - كما يقول الغزالي - فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع .

الكلمات الدالة: العامل السياسي ، انتشار المذاهب ، المذهب الأشعري ، المشرق الإسلامي ، المغرب الإسلامي .

Résumé

We will try in the present paper to shed light on the effect of the political factor in the propagation of doctrines in the Islamic history through AL Ashaàri doctrine that spread in most Islamic countries. We will also show the important impact of the correlation between the political factor and the practical factor in the interference of politicians in some doctrine conflicts as a way to serve most of their political interests, reign and dominance. This is so because -the king and religion- as stated by Al Ghazali are twins, religion is the origin and authority is the guardian, the one without origin is destroyed and the one without guardian is lost.

Key Words : Political factor- propagation of Islamic Doctrine- Al A shaàri.

المذاهب الأخرى، ثلاث اعتبارات أساسية:

أولها: الثقة الكبيرة التي يبدوا أن نور الدين أودعها في فقهاء الأشاعرة من خريجي المدارس النظامية - أهم المراكز العلمية حينها -، واطمئنانه إليهم، وبقينه بأنهم أهل لمجابهة الشيعة (إسماعيلية وإمامية) أكثر من غيرهم في الدائرة السنية، لتشبعهم بالفلسفة والجدل وعلم الكلام، ولاشتهار المدارس النظامية وخريجيتها بالمقدرة والخبرة على مواجهة المد الباطني الشيعي وكشف باطله، فعلق السلطان نور الدين عليهم أمله في تقويض التشيع في دولته، ليقرن المواجهة السياسية للمذهب الشيعي بمواجهة فكرية موازية، مُحاولاً بذلك تكرار تجربة سلفه نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة (456 هـ - 485 هـ) عندما وضع خطة طويلة المدى متعددة المراحل لتخريج فقهاء قادرين على مجابهة الفكر الشيعي، فقصر مدارسه على فقهاء المذهب الأشعري لتهيئتهم لذلك، وانتصر لمذهبهم على المستوى الرسمي مقابل بذلهم العون العقلي في مواجهة المذهب الشيعي⁽¹¹⁾، فاستعان السلطان نور الدين بأقطاب هذا المذهب لنفس الهدف، إلا أنه لم يتعمد الانتصار للمذهب الأشعري ولا لغيره من المذاهب، حتى مذهبه الحنفي، وإنما اشتهر في كتب التاريخ بتسامحه المذهبي وترفعه عن التعصب⁽¹²⁾.

ومما يعكس لنا ثقة نور الدين زنكي في فقهاء الأشاعرة والأمل الذي علّقه في قدراتهم أنه استعان بخريجي النظاميات الأشاعرة بكثرة في البيئات التي يُشكل الشيعة معظم سكانها، ونقصد بها خاصة البيئات الحلبية بشمال الشام أين كانت الشيعة الإمامية متمركزة، وكان ينوي القيام بنفس العمل في البيئات المصرية أين كانت الشيعة الإسماعيلية المدعومة بالسلطة الفاطمية العبيدية⁽¹³⁾.

أما في دمشق فلأنها كانت بيئة سنية في معظمها فقد وجه عنايته إلى فقهاء مذهبه، والإهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها⁽¹⁴⁾.

ثانياً: من العوامل التي أوجدت المناخ المناسب للمذهب الأشعري للانتشار في الدولة النورية كون دولة نور الدين محمود - كما هو معلوم - انبثقت من رحم الدولة السلجوقية التي خدمت سياستها المذهب الأشعري في عهد وزيرها نظام الملك، ولما استقل آتابكتهم الزنكيين بدولتهم كانت امتداداً للدولة السلجوقية الأم، فتبنت نظمها وترسمت خطاها فسارت عليها في جميع أحوالها القائمة على جهاد الصليبيين ومناهضة الفكر الشيعي في حلب ودمشق ومصر، وقد ذكر ابن الأثير أن ديوان زنكي كان يُشبه إلى حد كبير دواوين السلاجقة في نظمه⁽¹⁵⁾.

والمُطلع على التاريخ الإسلامي يلحظ اشتراك الدولة السلجوقية والزنكية والأيوبيه والمملوكية - التي حكمت باسم الدولة العباسية - في كثير من المعالم الحضارية التي تتقاطع فيها وتتقارب بعضها من بعض أكثر من قربها من معالم الدولة العثمانية التي ورثت عنها زعامة العالم الإسلامي⁽¹⁶⁾.

فكان من الطبيعي - والحال كذلك - أن ينشأ نور الدين في بيئة أشعرية، مُحاطاً بأساتذة وخريجي المدارس النظامية، التي خرّجت العلماء والفقهاء والقضاة والإداريين الذين استلموا وظائف عليا في الدولة الزنكية، كما خرّجت المدرسين

دور العامل السياسي في انتشار المذاهب و العقائد في التاريخ الإسلامي - المذهب الأشعري نموذجاً -

لا خلاف في أن منزلة الحكام منزلة عظيمة، جعلها الله صمام الأمن والأمان للمجتمعات، فما خلت بقعة من حاكم إلا وظهر الهرج والمرج، وصالت وجالت شرور الفتن والمفاسد.

وللسلطة السياسية - بما أوتيت من زمام القوة والحكم - تأثير على أهواء الناس العقيدية والمذهبية بشكل مباشر وغير مباشر، فالناس « على دين ملوكهم »⁽¹⁾، حتى قال ابن الفضل: ما كنت أعلم أن طباع الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك، وقد اشتغلوا بزراعة الكروم والبساتين، واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور فقد كان الرجل يلقي الرجل فيسأله: كم داراً عندك؟ وكم غرفة بنيت؟ ورأيتهم في زمن سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام حتى كان الرجل يسأل صاحبه: أي لون اصطنعت، وما الذي أكلت؟ ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن، وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات، فصار الرجل يلقي الرجل فيسأله: كم صليت البارحة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وكم وردك؟⁽²⁾، فعملت أن في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان، يعملون بأعماله، ويقتدون بأفعاله، من القبيح والجميل⁽²⁾.

ولبسط ذلك و توضيحه نأخذ على سبيل ذلك انتشار المذهب الأشعري في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه ودور العامل السياسي في ذلك، ففي شرق العالم الإسلامي لعب الوزير نظام الملك السلجوقي الأشعري الشافعي (ت485هـ) دوراً متميزاً وبارزاً في الانتصار للمذهب الأشعري والعمل على تعزيزه والانتصار له ولأقطابه، وكان قبله يُعلن على المنابر ويُقرن بالشيعة ويُدرج ضمن علوم الكلام المذمومة⁽³⁾، فأسقط الوزير لعنهم من على المنابر⁽⁴⁾، ورفع من شأن مذهبهم وأيدهم على جميع خصومهم فتغير حال الأشعرية وعظم أمرهم واعتنقها معظم الشافعية⁽⁵⁾، وبنى لهم المدارس⁽⁶⁾، فأنفق عليها بسخاء⁽⁷⁾ فعُرفت بـ «المدارس النظامية» نسبةً إليه، وأقر تدريس المذهب الأشعري منهاجاً رسمياً بها لاعتقاده أن الأشعرية الفئة الأقدر على النضال في الميدان الفكري، وأنهم - أي الأشاعرة - أجدر الفرق الكلامية المؤهلة لمواجهة الشيعة فكرياً⁽⁸⁾.

وكان للأشاعرة فرصة أخرى في دولة نور الدين زنكي في الشام (541هـ - 570 هـ) ودولة صلاح الدين الأيوبي في مصر (567هـ - 589هـ)، إذ مُكّن لهم ومُنحت لهم المناصب العليا في الدولتين كالوزارة والقضاء والفتيا⁽⁹⁾، ذلك لأن علماء المذهب كانوا يحملون شهادات من المدارس النظامية الأشعرية، أكبر المراكز العلمية والتكوينية بالشرق الإسلامي حينها.

هذا ولم نجد في كتب التراجم والتاريخ القديمة منها والحديثة ما يقطع بأشعرية نور الدين زنكي⁽¹⁰⁾، وإنما ما يُمكن إثباته هنا أن المذهب الأشعري وجد في دولته بيئة خصبة - أخرى - للانتشار، كونه - أي السلطان نور الدين - أتاح للأشاعرة الشافعية فرصاً في دولته أكثر من غيرهم من علماء فقهاء

تالية لجهود المدارس النظامية ومكملة لها، فانتفع بما حققته من نتائج، فالدولة الزنكية وإن استقلت عن الدولة السلجوقية سياسياً، إلا أنها لم تبتعد عن فلكها الحضاري الفكري واستفادت من إرثها الحضاري وكان للمذهب الأشعري حظ من ذلك .

ثالثاً: بالإضافة إلى ما سبق هناك عامل آخر يمكن أن ندرجه ضمن العوامل التي منحت المذهب الأشعري حظاً في دولة نور الدين زنكي، ألا وهو التسامح الذي أبداه نور الدين اتجاه كل المذاهب السنية التي عابها لمحاربة المذهب الرافضي، وكذا حبه الشديد للعلم والعلماء على اختلاف مشاربهم في الدائرة السنية⁽²⁹⁾، وكانت فرصة استفادة المذهب الأشعري من هذا التسامح المذهبي أكثر من غيرهم، فإذا عرفنا مقدار ذلك التسامح الذي تحلى به نور الدين، وعرفنا معه مقدار الثقة التي أودعها في أئمة المذهب الأشعري في دولته، فإننا ندرك بالتالي أن فرصة استثمارهم لهذا التسامح ستكون أكثر من غيرهم لما تمتعوا به من ثقة السلطة⁽³⁰⁾ من جهة، ومن جهة أخرى أتاح لهم ذلك فرصة الحفاظ على مكاسبهم بعد أن خرجوا منتصرين سياسياً من جولة الصراع المذهبي في العصر السلجوقي .

و يتضح لنا من كل ما سبق أنه لم تثبت أشعرية³¹ للسلطان نور الدين زنكي، ولم ينتصر لمذهب دون آخر كما كان الشأن في الدولة السلجوقية، ولكن المذهب الأشعري حظي في دولته الفتية بفرصة للإنتشار، حين عول السلطان نور الدين على خريجي النظاميات المتشبعين بالجدل وعلم الكلام لمأزرته في مسعاه لتضييق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي وإعادة الشام إلى الحضيرة السنية، ولبناء مؤسسات دولته الإدارية والدينية، فهذا التحويل الذي أبداه السلطان نور الدين اتجاه أقطاب المذهب الأشعري أتاح لمذهبهم نفساً آخر للتوسع والإنتشار في دولته .

وكان الدعم الأكبر للدولة السلجوقية والنورية والأيوبيه للمذهب الأشعري في المجال العلمي، نظراً للمدارس العديدة التي تضمنتها دولتهم⁽³¹⁾، والتي سنّها نظام الملك السلجوقي أول الأمر، وكان لتلك المدارس أبعاد الأثر في استقرار المذهب الأشعري وانتشاره وديمومته، ليس في شرق العالم الإسلامي فحسب بل وفي مغربه أيضاً .

فقد كانت لتلك المدارس التي أشرف عليها الوزير نظام الملك - كانت بحق - منعرجاً حاسماً في تاريخ الحركة المذهبية في العالم الإسلامي، إذ رجحت بفعلها الكفة للمذهب الأشعري أصولاً و الشافعي فروعاً، حيث فُرض ذلك على الطالب والمدرس والفراس في كل المدارس النظامية، فكان لها ولخريجها الأثر البالغ في التمكين للمعتقد الأشعري والمذهب الشافعي معاً، وحدت حذوها المدارس الزنكية والأيوبيه التي كانت - في الغالب - امتداداً لها بسبب سيطرة علماء النظامية عليها والتمكين لهم فيها .

وكان محمد بن تومرت المصمودي المغربي (ت484هـ - 524هـ) أحد خريجي تلك المدارس الذي تأثر وتعلم على كبار أساتذة نظامية بغداد كالفغزالي وإليكا الهراسي ثم رجع إلى بلاده وأقام دولته بها⁽³²⁾، وغيرهم كثير.

الذين كانوا يدرسون المذهب في أروقة مدارسهم التي انتشرت في كل مكان، فلم يفوت نور الدين فرصة الاستفادة من هذا الجيل المؤهل في دولته الفتية، فركن إليهم ووضع كامل ثقته بهم، وحفظ لهم مكانتهم رغم مخالفتهم لهم في التوجه المذهبي منهم: قطب الدين النيسابوري (ت578هـ / 1182م)⁽¹⁷⁾، وتلميذه بن عساكر الدمشقي (ت 571هـ / 1175م)، ولاء نور الدين دار الحديث النورية، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الموصلية (ت 572هـ / 1177م) من خريجي نظامية بغداد⁽¹⁸⁾ ولاء نور الدين قضاء دمشق سنة 555هـ / 1160م، وبعد أقل من عامين 557هـ / 1181م أصبح قاضياً لقضاء الدولة كلها، وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام، واعتمده نور الدين سنة 566هـ / 1171م سفيراً ومبعوثاً له إلى الخليفة العباسي المستنجد بالله 566هـ . 575هـ في بغداد⁽¹⁹⁾ وناظر للأوقاف وناظر المالية والقضاء، واستمر على ذلك حتى سلطنة صلاح الدين على الشام⁽²⁰⁾، كما اعتمد نور الدين ابنه - ابن القاضي الشهرزوري - محي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها، وكان محي الدين هذا هو الآخر من خريجي نظامية بغداد⁽²¹⁾ .

ومنهم أيضاً القاضي شرف الدين بن أبي عصرون (ت 585هـ / 1189م) الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاء بنوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه⁽²²⁾ كما اعتمده عام 566هـ / 1171م رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد⁽²³⁾ وكلفه نور الدين بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاء قضاء ديار بكر ومنحه - كما سبق وأن ذكرنا - صلاحيات واسعة⁽²⁴⁾ .

وقد استغل بن أبي عصرون منصب القضاء في دولة نور الدين زنكي وثقته الكبيرة به لخدمة مذهبه الأشعري، فقد ذكر عنه قطب الدين اليونيني (ت726هـ / 1326م) في « ذيل مرآة الزمان » أنه أخفى كتاباً ورد له من نور الدين يتضمن وقفاً لمدرسة ببعلبك هي « اشتراك بين الشافعية وغيرهم من المشتغلين بالعلم من أهل السنة »⁽²⁵⁾، أي من حنابلة وغيرهم، فلم يظهر أمر هذا الكتاب إلا في سنة 664هـ / 1266م⁽²⁶⁾ أي بعد قرن من وفاة نور الدين زنكي (ت 564هـ / 1169م) وبن أبي عصرون (ت 585هـ / 1189م) .

ومنهم أيضاً العماد الأصفهاني (ت 559هـ / 1164م) الذي اعتمده نور الدين في العديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية كقيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، فضلاً عن الاستفادة من قدراته العلمية والتدريسية في بعض مدارس دمشق⁽²⁷⁾ .

ومنهم أيضاً عبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت 563هـ / 1168م) الذي ولاء نور الدين قضاء ببعلبك والتدريس ببعض مدارس دمشق⁽²⁸⁾ .

لذا يمكن الجزم أن نور الدين لم ينطلق في بناء دولته من فراغ وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية، فقد جاءت جهود

سياسية وعقيدية لها وزنها في العالم الإسلامي، إذ كان العامل السياسي أقوى من الحق الذي يحملونه في قلوبهم، وأمضى من الحماس الذي يجري في صدورهم، وما يُمكن أن نخلص إليه أيضاً هو أن العامل السياسي إذا تحالف مع العامل الديني فإنه يلعب الدور الأكبر في تقدم المذاهب وتراجعها، فالناس على دين ملوكهم وعلمائهم، وفي ذلك يقول ابن تيمية « ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر وكفى بربك هادياً ونصيراً»⁽⁴⁴⁾.

الإحالات:

- 1- ابن الطقطقي، في الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، ص: 80. وقد أثر عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه « إن الله قد يزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن » انظر: والسلطان المقصود به كل سلطان في ولايته، ليس السلطان الأعظم فقط (الحاكم أو السلطان) وإنما كل من ولي أمراً من أمور المسلمين، فالمسؤولية مشتركة.
- 2- أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق: محب الدين العمري، دار الفكر، 1996 م، ص: 08.
- 3- أنظر: ابن تيمية، نقض المنطق، تحقيق محمد بن عبد الرزاق، مكتبة السنة المحمدية، بدون ت. ط، ص: 13 - 14.
- 4- الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بغداد، تحقيق بشار عواد، 1397 هـ / 1977 م، ص: 18 - 31.
- 5- أنظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة 01، بيروت، دار الكتب العلمية، 1412 هـ / 1992 م، ج: 6، ص: 332 و 359.
- 6- يقول السبكي عن نظام الملك: إنه بنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرور، ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويُقال إن له في كل مدينة بالعراق وخرسان مدرسة. أنظر: السبكي، طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلوم ومحمود محمد الطناحي، الطبعة 02، الجيزة، مصر، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1413 هـ / 1992 م، ج: 4، ص: 180.
- 7- عماد الدين الأصفهاني (المعروف بعماد الدين الكاتب)، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصره: الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، الطبعة 02، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1398 هـ / 1978 م، ص: 56. و ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968 م، ص: 287. ابن الجوزي، المصدر السابق، ج: 8، ص: 247، 256، أنظر: أبو الفتح بدوي، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، دار الوفاء المنصورة، الطبعة 02، 1408 هـ / 1988 م، ص: 185. ابن الجوزي، المصدر السابق، ج: 10، ص: 146.
- 8- أبو الفتح بدوي، المرجع السابق، ص: 184، 185.
- 9- منهم: قطب الدين النيسابوري الخبوشاني (ت 578 هـ / 1182 م)، أنظر: ابن العماد، المصدر السابق، ج: 2، ص: 288. و ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 4، ص: 239، 240. و السبكي، المصدر السابق، ج: 07، ص: 15 - 16، ومنهم ابن عساكر الدمشقي (ت 571 هـ / 1175 م)، ولاء نور الدين دار الحديث النورية، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الموصلية (ت 572 هـ / 1177 م) من خريجي نظامية بغداد. ولاء نور الدين قضاء دمشق سنة 555 هـ / 1160 م، وبعد أقل من عامين 557 هـ / 1181 م أصبح قاضياً لقضاة الدولة كلها، وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام، أنظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 4، ص: 241، واستمر على ذلك حتى سلطنة صلاح الدين على الشام أنظر: السبكي، المصدر السابق، ج: 6، ص: 188، واعتمده نور الدين سنة 566 هـ / 1171 م سفيراً ومبعوثاً له إلى الخليفة العباسي المستنجد بالله

وكان لحركته السياسية في المغرب الإسلامي صبغة دينية عقيدية لما اتخذ المذهب الأشعري إيديولوجية للإطاحة بالمرابطين الذين ضعف شأنهم في آخر عهدهم، ونجح هو وخلفاؤه بعد حروب ومؤامرات طويلة⁽³³⁾ في إقامة دولة في الغرب الإسلامي تعمل جاهداً على رعاية المذهب الأشعري رسمياً والحث والنيل من كل من يعارضه.

وكانت للرعاية السياسية التي أحاطت بمؤلفات بن تومرت في الأصول الأشعرية - لا سيما «رسالة المرشدة»⁽³⁴⁾ منها - دورها البالغ في انتشار المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي خاصة لما حظيت به من رعاية سياسية رسمية سلطوية في عهده وعهد خلفائه⁽³⁵⁾، ولما حظيت به أيضاً من شروح وتعليق⁽³⁶⁾ أسهمت في ترسيخ المذهب الأشعري واستمراره في المغرب الإسلامي.

وعموماً حظي علماء المذهب الأشعري وفقهاؤه في المشرق الإسلامي - منذ وزارة نظام الملك - بعناية سياسية بالغة، أسهمت في انتشار أفكارهم وآرائهم، ومثال ذلك التأييد والرعاية التي كفها الوزير نظام الملك السلجوقي لهم لا سيما من مثلوا هيئة التدريس في مدارسه⁽³⁷⁾، والإنصار الذي ضمنته السلطة الأيوبية للعز بن عبد السلام (ت 600 هـ) - إمام الأشاعرة في زمانه - على خصومه الحنابلة في مصر والشام⁽³⁸⁾.

وكان للموقف المنحاز والسلبى لسلطة بغداد - الواقعة تحت تأثير وضغط السلطة السلجوقية ممثلة في وزيرها نظام الملك - إسهام قوي ومباشر في انتصار الأشاعرة لمذهبهم في بغداد والجهر به في عاصمة الخلافة الإسلامية بعدما كانوا إلى عهد قريب من ذلك يُسرون به ويتسترون عليه، لا سيما بعد فتنة ابن القشيري الشافعي الأشعري (ت 469 هـ) التي ذكر الحافظ ابن عساكر (ت 575 هـ) وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت 72 هـ) أن كلمة الحنابلة والأشاعرة كانت مجتمعة، ثم تفرقت على إثر فتنة ابن القشيري⁽³⁹⁾.

ونفس الموقف اتخذته السلطة الأيوبية من الفتن والصدامات التي كانت تقوم بين الأشاعرة وغيرهم، ولا أدل على ذلك من فتنة نجم الدين الخبوشاني الأشعري (ت 587 هـ) مع الحنابلة في مصر⁽⁴⁰⁾، وحادثة العز بن عبد السلام الأشعري (ت 600 هـ) مع الحنابلة في الشام ومصر⁽⁴¹⁾، ومحنتي الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي (ت 600 هـ) مع الأشاعرة في دمشق وأصفهان⁽⁴²⁾، وفي هذه الفتن - التي نقلت كتب التاريخ والتراجم تفاصيلها - كان تدخل السلطة السياسية يحسم الخلاف لصالح الأشاعرة دائماً.

أما السلطة المملوكية التي ورثت الحكم في مصر عن الأيوبيين فقد كان موقفها أعنف من ذلك في التعامل مع من أظهر خلاف المذهب الأشعري و جهر بذلك، دل على ذلك محاكمتهم لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ / 1328 هـ) وأنصاره وسجنهم والتنكيل بهم لمجرد أنهم خالفوا المذهب الأشعري وصدعوا بذلك⁽⁴³⁾.

والواقع أن العامل السياسي كان عاملاً رئيسياً وحاسماً في استقرار المذهب الأشعري وانتشاره في العالم الإسلامي شرقه وغربه من منتصف القرن 5 هـ / 10 م، فأصبح الأشاعرة قوة

اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله داراً إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق ... والآن قد تعين عليك وعلي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت... فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله » أنظر: أبو شامة، الروضتين، ج: 02، ص: 120 .

14 - ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، 1417 هـ / 1996 م، ص: 209، أبو الفتوح بدوي المرجع السابق، ص: 210 - 211 .

15 - ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة: دار الكتب الحديثية، بغداد: مكتبة المثنى، 1382هـ / 1963م، ص: 83.

16 - من هذه المعالم الحضارية مثلاً أن اللغة العربية ظلت لغة رسمية للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك، مع أن أصولهم غير عربية ولغاتهم الأصلية غير عربية، أما في العهد العثماني فقد غدت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية، ومنها أيضاً إنشاء المدارس وحث الطلبة على العلم، ورصد المكافآت المغرية للمبرزين، وتكريم العلماء، وتوفير المناخ المناسب لإنتاجهم. وكان بناء المساجد يسير حركة بناء المدارس، والمساجد في عهدهم مواطن للعلم والدرس إلى جانب كونها للعبادة، أما في العصر العثماني فقد انقطع إنفاق الدولة على هذه المدارس كلها، لذا يطيب للكثير تسميتها (الدول السلجوقية، الزنكية، الأيوبية) بالدول «المتابعة» .

17 - محمد بن موفق بن سعيد بن علي بن الحسن، الملقب بنجم الدين أبو البركات الصوفي الشافعي الخبوشاني نسبة إلى خابوشان من أعمال نيسابور التي ولد بها في رجب سنة 510 هـ / 1116 م، قدم مصر سنة 565 هـ / 1169 م، قال ابن خلكان: كان السلطان صلاح الدين يقربه ويعتقد في علمه ودينه وعمر له المدرسة المجاورة لضريح الشافعي، وتوفي سنة 587 هـ / 1191 م بالمدرسة المذكورة ودفن في قبّة تحت رجلي الإمام الشافعي وبينهما شباك، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون ت.ط، ج: 2، ص: 288 . و ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 4، ص: 239، 240. و السبكي، المصدر السابق، ج: 07، ص: 16 - 15 .

18 - هو الفقيه الشافعي أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري، الملقب كمال الدين، وكانت ولادته بالموصل سنة 492 هـ / 1099 م)، نسبة إلى (شهرزور)، وقد بدأت تفقه كمال الدين على علماء بغداد، وسمع الحديث من أبي البركات محمد بن محمد بن خميس الموصل، ثم تولى القضاء بالموصل، وبنى فيها مدرسة للشافعية، كما بنى رباطاً بالمدينة المنورة، ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج: 4، ص: 241 .

19 - ابن الأثير، الكامل، ج: 10، ص: 51 .

20 - انظر: السبكي، المصدر السابق، ج: 6، ص: 188 .

21 - أبو شامة، الروضتين، ج: 2، ص: 158 .

22 - ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 3، ص: 53، 54، 55 .

23 - ابن الجوزي، المصدر السابق، ج: 10، ص: 237 .

24 - ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 3، ص: 53 - 56 .

25 - قطب الدين اليونيني، ذيل مرآة الزمان، الطبعة 01، حيدر آباد الدكن، 1380 هـ / 1960 م، ج: 1، ص: 284 .

- نفسه .

27 - النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410 هـ / 1989 م، ج: 1، ص: 408، 411 .

28 - السبكي، المصدر السابق، ج: 7، ص: 158 .

29 - وهي النتيجة التي أقرها الدكتور محمد علي الصلابي بعد بحثه الطويل في سيرة نور الدين حين قال أنه: استفاد من خريجي المدارس

566 هـ . 575 هـ في بغداد، أنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، الطبعة 02، دار الكتب العلمية، 1415 هـ / 1995 م، ج: 10، ص: 51 . ومنهم أيضاً القاضي شرف الدين بن أبي عصرون (ت 585 هـ / 1189 م) الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 3، ص: 53، 54، 55 . ابن الجوزي، المصدر السابق، ج: 10، ص: 237، وكلفه نور الدين بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبلعبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه صلاحيات واسعة، ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 3، ص: 53 - 56 .

10 - ليس ثمة أي بيّنة من سيرة نور الدين يمكن الإستناد إليها لنقول بأشعريته، و وجدت مجموعة من الكتابات تتمسك بما نقله صاحب الروضتين وغيره من أن نور الدين كان شديداً على رجل أظهر شيئاً من التشبيه في دولته يُعرف بيوسف بن آدم، فعذبه وعزّره ونفاه من دمشق كلها، وأرّكه حماراً وأمر بصفعه و طيف به ونودي عليه هذا جزء من أظهر في الدين البدع، (أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، الطبعة 01، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج: 1، ص: 50، هذه القصة الثابتة لا توحى من قريب أو بعيد بأشعريّة نور الدين، فموقفه ذاك تشترك فيه مختلف طوائف أهل السنة اتجاه المجسمة ومذهبهم المنحرف، وأصل اللبس في القصة أن كثيراً من متعصبي الأشاعرة قديما وحديثا يتلاعبون بمصطلح التشبيه والتجسيم والحشو ليرموا بها كل من خالفهم في نفي الصفات الخبرية القائمة بذات الله تعالى، و حاولوا تخصيص مذهبهم بتنزيه الله تعالى عن التشبيه دون غيره، والتسليم بأن مفهومهم للتنزيه هو الفهم الصحيح وما عداه فهو تجسيم وضلال، فهذه مغالطة عقيدية وتاريخية شائعة وجب التنبيه إليها .

11 - موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة أشعريّة، الجزء: 3، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى، 1418 هـ / 1998 م، ص: 802 . و حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد، المكتبة الأهلية، 1385 هـ / 1965 م، ص: 223 .

12 - يدل احتواء دولته لمدارس ومساجد وربط وزوايا للمذاهب الأربع كما هو مبسوط في الجزء الثاني من الدارس في تاريخ المدارس (من: ص: 3 - 99)، ومن ذلك وقفه زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، خصص إحداها لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية . و انظر: ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر ملوك الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبارة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1412 هـ / 1991 م، ص: 43 . حتى الصوفية السنية بنى لهم الخوانق، و لم يتجاهل هذه الطبقة الجامدة فحاول الإستفادة منها هي الأخرى، مُرتفعاً بذلك فوق عصبية المذهبية التي كانت لها سطوتها آنذاك، و نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة، الذي زادت المدارس النظامية حدة و عنفواناً، و حدا حذوه الخليفة المستنصر العباسي (ت 640 هـ / 1242 م) عندما بنى المدرسة المستنصرية عام 631 هـ / 1233 م و وقفها على المذاهب الأربعة كما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، ج: 13، ص: 139، و السيوطي في تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة 01، مصر، مطبعة السعادة، 1371 هـ / 1952 م، ص: 397 . و ذكر الذهبي أن نور الدين أعجب بالحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي (ت 600 هـ / 1204 م) عندما كان يطلب العلم والحديث في دمشق، و لما ارتحل الحافظ إلى مصر افتقده السلطان نور الدين و سأل عنه . أنظر: الذهبي: السير، ج: 21، ص: 449 .

13 - تتجلى نية نور الدين عندما حاول أن يوكل قضاء مصر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، ويذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه - وكان يحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها، ومما قاله نور الدين للشيخ: «أنت تعلم أن مصر

في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجب عليه التكليف، إذ لا يصح لهم عمل، ولا يُقبل منهم قول دون معرفة التوحيد، فمن لم يعرف المرسل لم يُصدق بالمرسل ولا بالرسالة، ومن حصل على مثل هذه الحالة فقد تعثر في أذيال الضلالة» انظر نص المرسوم ضمن رسالة مخطوطة بباريس نقله منها عبد المجيد النجار في كتابه ابن تومرت، ص: 404.

36 - شرح أبي عبد الله محمد بن خليل السكوني الإشبيلي نزيل تونس (ت 749 هـ / 1348 م)، وهو شرح صغير اعتمد فيه صاحبه على شرح متن المرشدة شرحاً أشعرياً مركزاً، قصد منه تأكيد أشعرية المرشدة، ومن خلالها تأكيد الفكر الأشعري في أذهان القارئ لهذا الشرح، وهي محققة ومطبوعة أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني، شرح مرشدة ابن تومرت، تحقيق يوسف احنايا، دار الغرب الإسلامي، 1414 هـ / 1993 م . و غيرها من الشروح

37 - أشهرها فتنة ابن القشيري، أكثر المؤرخين تفصيلاً في رواية تلك الحادثة هو المؤرخ البغدادي الحافظ بن الجوزي الحنبلي (ت 597 هـ / 1201 م) في كتابه المنتظم، ج: 8، ص: 305، 306، 307، و ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ج: 1، ص: 11، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، الطبعة 01، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417 هـ / 1997 م، ج: 3، ص: 75، ابن كثير، المصدر السابق، ج: 12، ص: 117، السبكي، المصدر السابق، ج: 4، ص: 235، ابن الأثير، المصدر السابق، ج: 8، ص: 428.

38 - الذهبي، تاريخ الإسلام، ص: 31-47، ومحمد عبد الطيف بن عز الدين بن عبد السلام، إيضاح الكلام فيما جرى للجز بن عبد السلام في مسألة الكلام، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مصر، دار الأنوار للطبع و التجليد، 1370 هـ / 1951 م، ص: 3. و عبد الرحمان الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، بيروت، دار الشروق الأولى، 1411 هـ / 1991 م، ص: 305.

39 - انظر: ابن عساكر، تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، الطبعة 03، بيروت، دار الكتاب العربي، 1404 هـ / 1984 م، ص: 163، وابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ج: 3، ص: 229، ج: 5، ص: 340، ج: 6، ص: 52-53.

40 - الذهبي، تاريخ الإسلام، ص: 41-64.

41 - الذهبي، تاريخ الإسلام، ص: 31-47. ومحمد عبد الطيف بن عز الدين بن عبد السلام، المرجع السابق، ص: 3. وعبد الرحمان الشرقاوي، المرجع السابق، ص: 305.

42 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة 09، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413 هـ / 1992 م، ج: 21، ص: 459.

43 - ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهرسه محمد سيد جار الحق، دار الكتب الحديثية، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية، 1385 هـ / 1966 م، ج: 01، ص: 171. والمقريري في السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريري، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الطبعة 01، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1377 م / 1958 م، ج: 2، ص: 401. وعزيز شمس، وعلي بن محمد العمران، الجامع لسيرة شيخ الإسلام بن تيمية خلال لسبعة قرون، قدم له: بكر بن أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ص: 91، 120، 360، 412، 585.

44 - ابن تيمية أحمد أبو العباس، 1979، أمراض القلب وشفاؤها، القاهرة، مصر، المطبعة السلفية، ص: 50.

النظامية وتبناهم في مدارس دولته وفتح لهم الأبواب لدعم المذهب السني ومناهضة الفكر الشيعي الرافضي لأنه كان يحمل مشروعاً فكرياً ثقافياً عقائدياً تربوياً تعليمياً استهدف به رعايا دولته ولم يفرق بين علماء الشافعية والأحناف والحنابلة والمالكية وأهل الحديث وشيوخ التصوف السني وغيرهم من أبناء الأمة وتحرك بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الشيعية الرافضية، انظر: السيرة الزنكية، كتاب إلكتروني من موقع صاحبه، ص: 11.

30 - فلم يكن نور الدين على سيرة القادر الذي اضطهد الأشاعرة ونكل بهم، وإن لم يكن على سيرة نظام الملك الذي منحهم التأييد المطلق.

31 - عن المدارس السلجوقية أنظر مثلاً: السبكي، المصدر السابق، ج: 4، ص: 180. وعن المدارس النورية أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 136، و ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص: 33. أما جهود الأيوبيين فقد لخص لنا المقريري ذلك حين قال: «حفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، وصار يحفظها صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري، وحملوا في أيام مواليتهم كافة الناس على التزامه» المقريري، المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار، بور سعيد، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية، بدون ت، ط، ج: 4، ص: 160.

32 - نفس المصدر، ج: 6، ص: 109.

33 - استغل ابن تومرت سداجة سكان المنطقة وبساطتهم وبيدائيتهم معارفهم فراح ينتحل لنفسه الكرامات ويتقن في الخدع ليمكن لنفسه ومعتقده الأشعري في المغرب، فاختلق حادثة نزول الملائكة لتزكيتهم ومباركة دعوته (ابن كثير، المصدر السابق، ج: 12، ص: 186)، وكلام الأموات الذين نطقوا من قبورهم ليشهدوا له بصدق دعوته (ابن أبي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، صور للطباعة والوراقة بالرباط، 1392 هـ / 1972 م، ص: 172. والساوي، المصدر السابق، ص: 96. الصلابي، الدولة الموحدية، الأردن، الطبعة 01، دار البيارق، 1419 هـ / 1998 م، ص: 67)، وحادثة التمييز التي أفنى بها خلقاً كثيراً (سبعون ألفاً) ممن رآهم مشككين في دعوته (وعرفت الحادثة - على غرايتها في تاريخ المغرب بحادثة التمييز، يقول بن خلدون في تاريخه « إلى أن كان شأن البشير وميز الموحّد من المنافق» أنظر: ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج: 6، ص: 228. الذهبي، تاريخ الإسلام، ص: 34-36، نقلاً عن اليسع بن حزم، الذي أكد أن كلامه هو مما عاينه أو نقله بتواتر، والساوي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 82. وأشار إليها البيهقي بأنها كرامات للموحدين كشفت لهم المنافقين المندسين بينهم أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975 - 1396 هـ، ص: 71.

34 - رسالة محضّة في العقيدة الأشعرية ضمن جامع « أعز ما يطلب » افتتحها ابن تومرت بقوله « اعلم أرشدنا الله وإياك ... »، وقد خصصها ابن تومرت للكلام في المسائل المتعلقة بذات الله تعالى ذاتاً وصفاتاً دون غيرها من مسائل العقيدة كالإيمان بالرسول أو اليوم الآخر أو مسائل القدر والصحابة كما هو شائع في المتن العقيدية، وجاءت هذه المسائل مرتبة على النحو التالي: وحدانية الله تعالى، خالقيته المطلقة، خضوع الخلائق له، أزليّة وجوده، تنزهه عن الزمان والمكان، تنزهه عن الشبيه والمثيل، سمعه وبصره، انظر نص الرسالة: ابن تومرت، أعز ما يُطلب، تحقيق عمار الطالبي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1406 هـ / 1985 م.

35 - إصدار عبد المؤمن مرسوماً يأمر فيه عامة الناس بأن يشتغلوا بقراءة مؤلفات المهدي ابن تومرت في العقيدة، وظيف لهم في ذلك أقداراً معينة وتراتب خاصة يتبعونها، ومما يلفت الإنتباه في هذا المرسوم ما جاء فيه من أنه «يؤمر طلبه الحضر ومن في معاناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر، ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها (اعلم أرشدك الله) وحفظها وتفهمها، وأشمل